



أستاذ التاريخ الحديث يرسم صورتها في العيد الـ 55

2007/07/22

إنجازات الثورة انتهت ولم تبق
رؤوف عباس: إنجازات «الثورة» انتهت ولم تبق إلا «زبالتها»!!
السادات صفاها بشكل ممنهج، ومبارك أكمل عليها بمنتهي الإخلاص
مصر تجلس علي «خازوق» لتتابع عصفوراً يحلق في السماء

حوار: محمد فرج

بمرور الذكرى الـ 55 لثورة يوليو تكون ضرورة قراءتها ومساءلتها واجبة، ولأن الدكتور رؤوف عباس - أستاذ التاريخ الحديث بجامعة القاهرة - أحد شهود هذه الثورة وأحد الدارسين للتحويلات التاريخية التي شهدتها مصر في القرن العشرين، كان طبيعياً أن نستمع إليه ليدلي بشهادته علي هذه «الحركة» التي أطلق عليها اسم «الثورة» رغم أنها - وبحسب كلامه - لم تنجز الكثير من أهدافها ومهامها، وعلي الرغم من أنها تحولت منذ ربع قرن عن مسارها الأول..

> إلى أين اتجهت أهداف ثورة يوليو بعد 55 عاماً؟

- أولاً: ما الأهداف التي نادى بها ثورة يوليو: تحقيق التحرر الوطني، وخلق دور إقليمي لمصر مبعثه الأمن القومي وليس أيديولوجية القومية العربية الأخيرة جاءت في مرحلة لاحقة فلا يمكن أن تحافظ علي استقلالك في وسط مجموع معاد لك لوقوعه تحت الاستعمار فأنت صاحب مصلحة في تحرر الأقاليم المجاورة لك كي تتخلص من تهديد الاستعمار ومن هنا كانت سياسة التحرر الوطني.

ثانياً: علي الصعيد الاقتصادي الاجتماعي، كان الهدف هو خلق قاعدة مستقلة للاقتصاد الوطني، وحاول الضباط في البداية الاستعانة بالرأسماليين المصريين - علي عكس ما يشاع من عداة الضباط المبدئي للرأسماليين - ووفروا لهم فرصة كبيرة بعد تأميم الشركات الأجنبية التي كانت تمثل 80% من رأس المال العامل في السوق المصرية، ووجه الضباط الدعوة للرأسماليين لتولي وإدارة هذه الشركات، ولكن لما كان رأس المال لا يعمل إلا في إطار نظام يشعره بالأمان علي مصالحه فإن ثورة يوليو ظنت خطأ أن هناك نوعين من الرأسمالية، جزء أطلقوا عليه «الإقطاع» والجزء الآخر العامل في الصناعة والتجارة، ولكن لما كان الاثنان متداخلين قامت الثورة بضرب إحدى الأذرع «الإقطاع» بإصدار قوانين الإصلاح الزراعي، فسحبت الرأسمالية ذراعها الأخرى «الصناعية» من قطاع الأعمال. بلا أجندة اشتراكية

أما أكبر إنجازات يوليو فكان علي الصعيد الاجتماعي، وبكل المعايير لم يكن لدي عبدالناصر ورفاقه من الضباط الأحرار أجندة اشتراكية وهم من البداية يكرهون الشيوعية وتحديداً عبدالناصر ولكن الضباط كانوا يهدفون إلي تحقيق نوع من التوازن الاجتماعي عن طريق تنمية الطبقة الوسطى عبر الاهتمام بالتعليم والرعاية الصحية الأمر الذي يؤدي إلي تحقيق أحد أشكال العدالة الاجتماعية عن طريق انتشار الكثيرين ممن يعيشون تحت خط الفقر، هذه هي أهداف ثورة يوليو وما حدث هو تآكل لكل هذه الأدوار السادات وضع بذرة هذا التآكل، وبدأت نتائجه في الظهور بوتيرة متسارعة في الربع قرن الأخير.

فكرة الاستقلال الوطني قاربت علي الاختفاء بسبب الارتباط بالأجندة الأمريكية وتنفيذها بكل إخلاص وأمانة. الدور الإقليمي انسحب تماماً، وكفي للدلالة علي ذلك الدور الذي تلعبه قطر كقوة إقليمية، فالسعودية أصبحت تتحسب لدور قطر أكثر من تحسبها لدور مصر. وعلي المستوي الأفريقي يمكنك القول إن هذا الدور انتهى تماماً، فلم يحدث

في تاريخ مصر أن سمحت بتدخل طرف خارجي في الشأن السوداني، وعندما حدث في السبعينيات احتكاك بين السودان وإثيوبيا هدد السادات بالتدخل المباشر لحماية «العمق الاستراتيجي لمصر».

أما الآن فلم تعد هناك سياسة خاصة بالسودان ولا بالدائرة الأفريقية بل تحولت مصر في أحداث السودان المشتعلة إلي طرف خارجي مثل بقية الأطراف.

وعلي الصعيد الاجتماعي.. الطبقة الوسطي هي أكثر طبقات المجتمع بؤساً فهي تتآكل إلي جانب تغير المداخل المعتادة للحراك الاجتماعي.

فأنا ابن عامل ولولا ثورة يوليو لما تمكنت من دخول الجامعة، ولا حتي المرحلة الثانوية، ففرصة الحراك الاجتماعي عن طريق التعليم تلاشت ومشروعات التنمية الاقتصادية المستقلة انتهت.

السادات ومبارك

> في رأيك متي انتهت ثورة يوليو؟

- أي ثورة تنتهي بتغيير التوجهات الأساسية التي قامت من أجلها ولا توجد ثورة تستمر إلي الأبد، فالثورة تقوم من أجل تغيير وضع معين، وعندما يتغير الوضع تنتهي، وما حدث في عهد السادات كان بداية انتهاء ثورة يوليو، فقد أطلق علي أحداث مايو 1971 «ثورة التصحيح» فالسادات بدأ عملية تصفية ممنهجة للثورة أكملها مبارك بمنتهى الإخلاص.

> ولكن ألم يكن السادات أحد رجال جمال عبدالناصر؟!

- تنظيم الضباط الأحرار أشبه بالجبهة الوطنية ضم جميع التيارات الإخوان ومصر الفتاة واثنين شيوخين بالإضافة إلي شخصية مثل عبدالناصر، تعرف علي أكثر من تيار وبدأ يبحث عن تيار يخصه وعندما تقرأ كتاب السادات، صفحات مجهولة من تاريخ الثورة ستجد يذكر بوضوح أن السبب الأساسي - برأيه - لنجاح الثورة أن المجموعة التي قامت بها لم تمتلك أيديولوجية، لأنه في حالة امتلاكهم أيديولوجية كانوا سيختلفون حول التفاصيل ويشير السادات إلي أن ما كان يجمعهم هو «الصدقة»!! فعند وجود تنظيم بهذه الكيفية، يكون من الوارد جداً وجود أشخاص مثل السادات وأفكار شبيهة بأفكاره.

> كيف تري مأزق نظام يوليو الأساسي، الذي أدي إلي انهيار هذه الثورة؟

- مأزق ثورة يوليو أنها فشلت في أن تحث تحولاً مدنياً في المجتمع المصري وعندما تقوم ثورة في أي مجتمع، فهذا يعني أن القوي القديمة في المجتمع فشلت وهناك قوة جديدة تمتلك بديلاً للأوضاع المنهارة.

فثورة يوليو أخفقت في إحداث نقلة علي صعيد المجتمع المدني في مصر، علي الرغم من أنها طرحت نفسها كبديل لنظام الملكي المنهار، وغيّرت هيكل النظام الاقتصادي وفتحت باباً للصحوة الاجتماعي أمام فئات كثيرة، لكنها أسقطت أهم جانب وهو المشاركة في السلطة السياسية، عجزت الثورة عن بناء تنظيم سياسي جماهيري فعندما تكون تنظيمياً سياسياً وأنت في السلطة، فأنت تجتذب الانتهازيين بشكل أساسي، فالتنظيمات المختلفة التي كونتها الثورة كانت مجرد لافتات تتبدل، فنفس الذين هتفوا للسادات «أفرم يا سادات» في بداية حكمه، هم الذين هلّوا وهتفوا لعبدالناصر وهم الذين يهتفون حتي الآن لمبارك ويكفي وجود شخصية مثل كمال الشاذلي الذي احتقل بمرور 47 عاماً علي عضويته في البرلمان. فاستمرار شخص كل هذه الفترة مع تغيير الأنظمة والتوجهات يبين تهافت هذه المؤسسات.

استتبّع ذلك الفشل اتباع النظام الناصري سياسة إقصاء المعارضة - يمين ويسار - بشكل يصل إلي حد التصفية الفعلية، بهدف الحفاظ علي بقاء النظام إلي جانب معالجة الواقع السياسي بشكل عام من خلال الأجهزة الأمنية، فالحكم الفردي الديكتاتوري يخلق أجهزة أمنية متعددة من أجل ضمان وصول المعلومة من أكثر من مصدر.

عبدالناصر ظل يرتدي حلة قائد التنظيم السري ولا يجوز إدارة دولة بمنطق التنظيم السري فسياسته علي مستويات كثيرة ليس فقط في الشؤون الداخلية، ولكن حتي علي مستوى السياسة الخارجية كانت تعتمد علي أجهزة مخبرانية، كل هذا ساعد علي تصفية ثورة يوليو.

الحالة المصرية

> لكن هل ما نشهده حالياً من أوضاع متردية علي جميع المستويات يمكن أن ننسبه كلية إلي ثورة يوليو حتي بعد مرور 55 عاماً عليه؟

- ذات مرة كنت في لندن، وذهبت إلي طبيب وقيل أن يسألني عن شكواي المرضية الحالية سألني عن تاريخي الصحي إجمالاً، بل وتاريخ أسرتي المرضي، وبعد ذلك بدأ يسألني عما أشكو منه حالياً هذا يسمى تشخيص الحالة أنت الآن أمام حالة مرضية اسمها الحالة المصرية وهذه الحالة ليست وليدة اللحظة ولكنها تحمل جذوراً ماضوية بعضها يكمن في ثورة يوليو، وبعضها يكمن علي سبيل المثال في ميل المصريين إلي الحاكم الفردي، وتلك إحدي الصفات «الجينية» في تاريخ المصريين عبارة «أه يا بلد عايزة ولد» يمكن أن تلخص هذا الميل، وبالتالي فمسألة افتقاد الزعيم تمثل كارثة عند المصريين، فعند موت مصطفى كامل خرج المصريون مثلما خرجوا في جنازة عبدالناصر، سعد

ز غول كتب في مذكراته متعجباً من تصرف الجماهير بذلك الشكل إزاء كامل الذي كان سعد يعتبره نصاباً، وعندما مات سعد خرج المصريون أيضاً، بل وألفوا مواويل بكائية علي سعد غنتها الفلاحات في القرى ثم تكرر الأمر مع النحاس باشا، ففكرة «الزعيم المخلص» قديمة جداً في التراث السياسي المصري وثورة يوليو أحد تجليات هذه الفكرة فبعد أن كان المخلص مصطفى كامل أصبح سعد ز غول فالنحاس انتهاء بعبدالناصر ومازال الناس في انتظار مخلص جديد.

> ما الذي تري أنه بقي من ثورة يوليو؟

- ما تبقي من نظام يوليو هو «الزبالة» فقط، فالإعلام الذي يتعامل معنا - نحن الجماهير- علي أننا ناقصو عقل ودين وأشياء أخرى كثيرة مازال يلفق لنا قضايا وهمية من أجل جذب الانتباه وبعيداً عن القضايا الحقيقية، مرة الرسوم الدنماركية، وأخيراً سلمان رشدي سيتحول إلي قضية حيوية لأن ملكة بريطانيا منحتة جائزة موضوعات عجيبة المههم ألتلقت إلي قضاياك الأساسية، فنحن نشبه الجالس علي خازوق بينما يطالب بمتابعة العصفورة التي تحلق بعيداً.

منظومة الجامعة الأخلاقية

> إذا انتقلنا إلي الجامعة الكثير يرجع المشاكل التي تعاني منها الجامعة إلي النظام التعليمي الذي وضع أيام ناصر، والذي أعتمد بشكل رئيسي علي الكم لا الكيف؟

- سأحدث عن الكلية التي أعمل بها، كلية الآداب، لم تبدأ زيادة الأعداد بهذا الشكل، وضغط المجلس الأعلى للجامعات علي الكليات والأقسام المختلفة من أجل قبول هذه الأفواج في العشرين عاماً الأخيرة، مع بداية الثمانينيات تغيرت منظومة القيم الحاكمة في المؤسسة التعليمية فأصبح الهدف هو جني أكبر قدر من المكاسب الشخصية رصيد في البنك، سيارة، أراض زراعية وهكذا، فعلي سبيل المثال هناك أحد الأساتذة من أصول ميسورة، ودرس في الخارج، ثم ورث عن أبيه مساحة كبيرة من الأراضي الزراعية، وكان من أوائل الأساتذة الذين اخترعوا فكرة «المذكرات» الملخصة ثم مذكرة «بنك الأسئلة» وحصل علي مدة إعارته إلي الخارج كاملة - 10 سنوات - وعلمت مؤخراً أنه أقام مزرعة للبهائم علي مساحة 65 فدانا في الصالحية وبنوي افتتاح مدرسة خاصة!!

هذه الحالة ليست فردية بقدر ما تدل علي منظومة حاكمة وعلاقة لها بسماح عبدالناصر لأبناء الفقراء بالتعليم. ولكن هذه عملية خلط أوراق من أجل إلحاق كل الخطايا بشماعة عبدالناصر.

أما ما أدي إلي تغيير المنظومة الأخلاقية الحاكمة للجامعة فهو سيطرة الأمن علي الجامعة بجانب «أستوزار الجامعيين»نتج عن ذلك محاولات الجميع إثبات إخلاصه للنظام وأنه الأقدر أن يكون خاتماً مناسباً في إصبع النظام، أصبح هذا هو المقياس، أما العملية التعليمية فأصبحت مجرد عامل مساعد لزيادة الأرصدة في البنوك ويكفي المقارنة بين نسبة الإنفاق علي البحث العلمي في الفترة الناصرية والنسبة الآن.

http://www.elbadeel.net/index.php?option=com_content&task=view&id=600